بلـزاك

الحب الأول .. والحـب الأخير

ولد بلزاك عام ١٧٩٩ بمدينة تـور الفرنسية ونشأ بلـزاك فـى أسرة تعانى من الاضطراب ، وعدم التماسك فقد كانت أمه تصغر عـن أبيـه بحوالى ٣٢ عامًا وقد اضطرت للزواج منه تحت ضغط أسرتها ، فقـد كـانت أسرة فقيرة وكان هو موظفًا محترمًا فى الجيش ، وجاء بلزاك ليجد كمًا من عدم التفاهم جمع بين أمه وأبيه.

كانت أمه عصبية وقاسية ، وكان الأب كثير الأحلام ويعيش مع الخيال أكثر مما يعيش فى واقع حياته .

لم يكن بلزاك متفوقًا فى الدراسة بل كان دائم السـرحان أثنـاء الـدروس مما جعل المدرسين يائسين منه ، ولا ينتظرون منه نتيجة ، ولكنه اسـتطاع

أن ينهى دراسته ، وقد درس القانون وكان أهله يشجعونه على دراسة القانون ، ويمتهن القضاء أو النيابة فهذه المهن مهن محترمة ، ويمكن أن تنقذ الأسرة من الظروف الاقتصادية الصعبة ، ولكن بلزاك رفض ذلك لأنه كان يعشق الأدب، وعرف أنه خلق ليكون أديبًا، وحاول أن يقنع أسرته أنه يستطيع الكسب من عمله الأدبى.

تكونت عند بلزاك عقدة منذ الطفولة بسبب قسوة أمه ، وظروف المعيشة الصعبة والفقر الذى عاناه هو وأسرته ، وكان وقتها يعتقد أن أمه لا تحبه بسبب معاملتها القاسية له .

وعندما بلغ بلزاك عشرين سنة ، انتقل إلى باريس وكان مثله الأعلى آنذاك نابليون ، فقد أعجب بشخصية نابليون ، وبطولاته ، وأراد أن يحقق بقلمه ما حققه نابليون بسيفه .

استأجر بلزاك غرفة فوق سطح إحدى البنايات فى حى فقير من أحياء باريس، وكان ذلك فى بداية حياة بلزاك الأدبية ، ويصف المؤرخون هذه الغرفة بأنها " رديئة " ، ولكن بلزاك احتمل حياته الجديدة فيها بعزم وعناد ، فكان ينظف الغرفة بنفسه ، ويذهب لشراء الطعام الرخيص حتى يوفر ما يمكن أن يتكلفه فى المطاعم ، حتى الماء كان يذهب لإحضاره من نافورة " سان ميشيل " كى لا يتكلف ثمن شرائه ، ولم يكن كل ذلك ليثبط من عزيمته ، وكان يتعزى عن شقائه بالتطلع من نافذة غرفته الصغيرة إلى أضواء باريس ، متأملاً سحرها، حالمًا بذلك المجد الأدبى الذى يرجوه ، حتى يصبح علمًا بين نجوم تلك المدينة التى امتلأت سماؤها بأسماء أعظم

رجال الأدب والفكر فى مختلف العصور .

وبالرغم من هذه البداية القاسية إلا أن بلزاك واصل العمل ، وكافح من أجل تحقيق أهدافه ، والحلم الذى كان يحلم به.

ولكن ظلت عقبة المال ، تقف حائلاً دون تحقيق هدفه ، فهو بحاجة للمال لكى يتفرغ إلى محاولاته الأدبية ، فبدون مال لن يستطيع دفع إيجار الحجرة، ولا حتى ثمن الطعام ، وخاصة بعد أن قررت أسرته عدم إرسال أى نقود له، وتركته يعتمد على نفسه ، وقد حاول بلزاك كتابة أفكاره الأدبية الأولى وعرضها، ولكنها لم تلق نجاحًا يؤمن له دخلاً يعيش به .

وفكر بلزاك فى الانتحار لعله يتخلص من حياة البؤس والشقاء والحاجة إلى المال ، وعدم التفرغ لتحقيق حلمه بالتفرغ للأدب الذى لا يرضى عنه بديلاً، وكان قد تعرف فى ذلك الوقت على سيدة فرنسية فى الخامسة والأربعين من عمرها ، تقريبًا فى عمر أمه وكانت هذه السيدة اسمها دوبيرنى وقد تعاطفت معه وأحست أنه عبقرى ، وأنه يخبط خطواته الأولى نحو النجاح والقمة، ومع هذه السيدة وجد بلزاك معنى للحياة وأحبها وبادلته نفس شعوره ، وعندما قرر الانتحار ذهب إليها فأخذت تحدثه عن الأمل وعدم اليأس وتشجعه بكلمات رقيقة حتى تخلى تمامًا عن فكرة الانتحار وواصل مشواره ومحاولاته الأدبية، وقد أثرت علاقته بهذه المرأة التى عوضته عن حنان أمه الذى افتقده منذ صغره، أثرت تأثيرًا واضحًا على كتاباته عن المرأة ، كتاباته التى أصبح لها صدى فى أنحاء فرنسا ، بل وأوربا كلها ومازالت حتى الآن تحتل مكانة رفيعة فى عالم الأدب.

ويقول زفايج وهو الذى كتب قصة حياة بلزاك : " إن علاقة بلزاك العاطفية بمدام دوبيرنى هى التى دفعته إلى أن يكتب كلمته الخالدة " ليس إلا الحب الأخير للمرأة الذى يستطيع أن يرضى الحب الأول للرجل " وأثر هذا الحب على رأى بلزاك فى المرأة ، فالمرأة النموذجية فى نظر بلزاك هى تلك المرأة التى تخطت الثلاثين والتى تكون بمثابة الأم الحنون التى تغمر شريكها بالحب والحنان ، وتأثرت بالطبع كتابات بلزاك ورواياته بهذه المرحلة فرسم للمرأة التى تخطت الثلاثين صورًا فريدة مما جعل له معجبات كثيرات فى هذه المرحلة " .

وكان لبلزاك فلسفة " إن المرأة ذات الأربعين تعطيك كل شىء ، أما ذات العشرين فلا تعطيك شيئًا على الإطلاق ".

تلك هى نظرة بلزاك للمرأة كما يصفها " زفايج " والسبب فى هذه النظرة كانت مدام دوبيرنى التى أنقذته من الانتحار، وأعطته الدفعة التى بدأ منها حياته الأدبية ، وأعطته العطف والحنان الذى حرم منهما .

ولكن ظلت مشكلة المال قائمة بالنسبة لبلزاك ففكر فى أن يقتحم مجال التجارة ليحل مشاكله المادية ، وبذلك يستطيع أن يتفرغ لحياته الأدبية كما أراد ، فأنشأ دارًا للنشر ومطبعة ، ووضع تخطيطًا دقيقًا لاستيراد الأخشاب إلى فرنسا ، كما فكر أيضًا فى مشروع لاستخراج الفضة من بعض المناجم الإيطالية القديمة ولكن بلزاك لم ينجح فى أى مشروع خطط له وغرق فى الديون، وأصبح مدينًا بنحو ١٢٥ ألف فرنك ، وكان هذا المبلغ فى عام ١٨٢٨ مبلغًا شديد الضخامة كفيلاً بأن يقضى على حياة صاحبه .

ويقول المؤرخون: إن مشروعات بلزاك كانت فى البداية أفكارًا خلاقة وذكية، وأى مشروع منها كفيل بأن يجعله مليونيرًا ولكن بلزاك كأديب كان عاجزًا عن رؤية التفاصيل الواقعية ، فمثلاً عندما أراد تنفيذ مشروع مناجم الفضة فى إيطاليا أخذ يتحدث أمام الجميع ويروى فكرته ، ويأخذ الآراء وكان يفعل ذلك بنية حسنة ، وكأنه يتحدث عن فكرة فلسفية ، أو رواية جديدة من رواياته البديعة التى تملأ عقله ووجدانه ، وكانت النتيجة أن أحد التجار أخذ الفكرة وسبق بلزاك لتنفيذها وبنفس الطريقة فشلت جميع مشروعاته الأخرى.

وبعد فشل هذه المشروعات لم يبق أمامه غير الكتابة ، ولكنه كان بحاجة إلى الوقت والصبر لكى يحقق الشهرة والثراء ، كان بلزاك يعمل أربعا وعشرين ساعة ، ويستمر فى العمل ويقاوم النوم مقاومة عنيفة.

فكانت نتيجة هذا الجهد الشاق انهيار صحة بلزاك بصورة سريعة ، ولكن بالمقابل أنتج إنتاجًا أدبيًا عظيمًا فقد كتب فى أقل من ثلاثين عامًا ما يقرب من سبعين رواية وكان أحيانًا يكتب الرواية فى ستة أسابيع كما حدث فى إحدى روائعه الروائية وهى " لويس لامبير " والتى يقارنها النقاد برواية جوته "فاعست" والفرق هو أن بلزاك كتب روايته فى ستة أسابيع أما جوته فقد كتب روايته فى ستين عامًا .

وكانت عبقرية بلزاك تكمن فى أنه كان يستطيع أن يكتب خمس روايات كبيرة فى سنة واحدة ، ولها قيمة فنية وإنسانية وأدبية ، عالية، وقد حقق بلزاك غزارة الإنتاج ، وارتفاع مستواه فى نفس الوقت فاستحق

مكانته الرفيعة فى الأدب الفرنسى والأدب العالمى.

وفى عام ١٨٥٠م كان بلزاك قد وصل إلى قمة الشهرة والمجد وبدأ يجنى ثمار جهده ، وعبقريته ، أثث بيتًا فاخرًا فى باريس حقق فيه كل أمانيه ، وقرر أن يتزوج من امرأة بولندية أرستقراطية تدعى " هانسكا " وكانت حبه الأخير ، تزوجته بالرغم من علمها أنه مريض ، وعلى وشك الموت ولم يمض على زواجهما ثلاثة شهور حتى سقط بلزاك مريضًا ثم توفى وهو فى الـ ٥١ من عمره، وقال طبيبه : " إنه مات بالذبحة الصدرية ، وأن قلبه كان متعبًا بسبب الإرهاق والمبالغة فى شرب القهوة ليقاوم النوم " .

وإذا كان بلزاك قد عانى فى حياته إلا أنه ترك وراءه أعمالاً روائية خالدة رسم فيها ما يزيد على ألفين من الشخصيات النادرة التى تصور الصراعات الإنسانية ، وكان أدب بلزاك هو العزاء الوحيد عن المعاناة التى عاشها هذا الفنان بين حبه الأول وحبه الأخير.